هل كانت مقدمة

للتنظير اللغوي أم لتدمير اللغة العربية ؟

د. عبد العزيز المقالح

وما يزال الحديث عن العرب ولغتهم.. وليس في الدراسات الأدبية والتاريخية ما يثير الاشجاب ويدعو إلى الاجتهادات كموضوع العرب ولغتهم، ومنذ بداية هذا القرن والكتابات نعيش على أمل ما سوف تكشف عنه الرمال في جنوب الجزيرة العربية، وما سوف تتحدث عنه النصوص المطمورة تحت ركام تلك الرمال، ونحن في أواخر القرن ما زلنا نعيش على ذلك الأمل ونتعلل بالأحلام، وما أجمل العيش في الأماني، وما أروع التعلل بالأحلام، وحتى تكشف الرمال العربية عن خفاياها غير النفطية والذهبية سيظل الدارسون يكررون أنفسهم وربما يجددون الأحكام في أقوال غيرهم.

وأمامي الآن كتاب عن اللغة العربية بقلم كاتب ما كنت أظن أنه سيشغل نفسه بمثل هذه القضية وأمامه من قضايا الأدب والفن والسياسة وما يسبب له الدخول إليها من متاعب ما تحول بينه وبين الدخول إلى هذا المجال الشائك. والغريب أن الكتاب موضوع الحديث يقع في ٦٥٧ صفحة، وأن مؤلفه قد أنفق في إعداده سنوات عديدة وبذل فيه جهداً غير عادي. والكتاب هو "مقدمة في فقه اللغة العربية" والمؤلف هو الدكتور لويس عوض، وما قد يهم القارئ معرفته بادئ بدء أن هذا الكتاب يقف الآن في قفص الاتهام. وأنه بعد أن تم طبعه ونشره ثم توزيعه وبعد أن وصل إلى معرض الكتاب في صنعاء قد أصبح ممنوعاً من التداول!.

ومهما اختلفت الناس من حول هذا الكتاب، ومهما قيلت فيه وفي مؤلفه من آراء فإن شيئاً واحداً في الكتاب قد أثار اهتمامي وهو ما توصل إليه الباحث المعاصر من وحدة الأصل اللغوي لكل اللغات في العالم دون استثناء، وهو ما يكاد يؤكد ما ذهب إليه دعاة "التوقيف" في اللغة العربية، وسوف أعود إلى شرح معنى "التوقيف" بعد هذه المقدمة التي أرجو من القارئ أن لا يضيق بها وأن يغفر لي الخروج عن السياق.

من التعابير المعاصرة التي تتردد كثيراً ويكثر تداولها في هذه المرحلة تعبير يقول: (أن أقصى اليسار يساوي أقصى اليمين) وهو تعبير صادق في كل الأحوال. يصدق في السياسة كما يصدق في البحث العلمي، ويصدق في الأدب كما يصدق في التاريخ. وأمامي دليلان في مجال البحث العلمي.

من خلال جهد باحث واحد هو الدكتور لويس عوض، الدليل الأول في بحثه الذي سيكون موضوع حديثي في هذه الدراسة وهو عن الجذور الأولى للغة العربية، والدليل الآخر ليس أمامي منه إلا فقرات رواها الدكتور لويس نفسه في مجلة سيارة وهي من بحث له عن الثائر الإسلامي الشهير "جمال الدين الأفغاني". ولنبدأ من الدليل الأخير، يستطيع من يتابع واقع الفكر الحديث في الوطن العربي، أن يشهد نشاطاً محموماً من جانب اليمين الفكري في تشويه المنطلقات الإصلاحية المحدودة، وفي الدعوة إلى هدم أقطاب الفكر الاحيائي أمثال: "جمال الدين الأفغاني"، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، واضرابهم من رجال حركة التنوير الديني، وعلى من يدعي الانتماء إلى اليسار الفكري في مثل هذا الواقع، ومن يعلن دائماً –كما يفعل الدكتور لويس– أنه مستهدف من الرجعية ومعرض للقمع أقول على هؤلاء أن يقفوا في صف تلك المنطلقات الإصلاحية المحدودة، وأن لا ينفقوا وقتاً طويلاً (في بحث مستمر وإطلاع استمر سنوات، وبعد دراسة للعديد من الكتب الصادرة عن جامعات من الدرجة الأولى).

كما فعل الدكتور لويس أيضاً ليثبت بالدليل القاطع عدداً من الحقائق المهمة عن "جمال الدين الأفغاني"، ومن هذه الحقائق: أنه إيراني وليس أفغانياً، وأنه أخفى جنسيته الأصلية حتى لا يرتبط اسمه بالشيعة وهم أقلية في العالم الإسلامي، وحتى لا يفقد حرية الحركة في كل البلاد السنية من أفغانستان إلى مصر، إلى تركيا، وليست هذه هي أهم الحقائق التي توصل إليها لويس عوض بشأن جمال الدين الأفغاني، وإنما أهم هذه الحقائق أن "الأفغاني بنشأته الأولى لم يكن فقط شيعياً بل أثنا عشرياً. ثم بهائياً" يا لعظمة النتيجة التي سوف تتعاظم وتزيد عندما يضيف الباحث المطلع على كتب صادرة عن جامعات من الدرجة الأولى قوله: "والغريب في الأمر أن تقارير جواسيس الإنكليز كانت تصفه بأنه متحرر دينياً". مجلة المستقبل: العدد ٢٧٥ ص٦٦.

ما الذي يريد أن يصل إليه لويس عوض من وراء بحثه المرهق والشاق عن جمال الدين الأفغاني؟ وما الغاية الوطنية أو الاجتماعية التي سيخرج بها من خلال بحثه الجليل؟ ثم إذا كان لويس عوض قد أخذ دليله عن تحرر الأفغاني دينياً من تقارير جواسيس الإنكليز لا من كتابات الأفغاني نفسه، ولا من آثاره وأخباره وأساليب حياته، إذا كان قد فعل ذلك فيما يتعلق بالتحرر الديني فهل أخذ أدليته القاطعة الأخرى عن شيعية الأفغاني وبهائيته عن تقارير جواسيس الإنكليز أيضاً، أم عن الكتب الصادرة عن جامعات من الدرجة الأولى، وما هي هذه الجامعات إن لم تكن جامعات الإنكليز؟ وخلاصة القول عن هذا الدليل أن التطرف اليساري لا يخدم سوى التطرف الموازي له، تطرف اليمين، وأن الجهد الذي أنفقه الدكتور لويس قد أفاد خصومه من حيث يدري أو لا يدري، ولا أحسب أن أجاري خصومه أو أسقط في مستنقع الترويج للاتهامات السخيفة التي تطارد لويس عوض منذ ثلاثين عاماً وتتهمه بأنه (صبي المبشرين) وأكره أن أقول بأنه إن كان يقدر (التحرر الفكري) للأفغاني فإنه قد كان ينكر منه أنه (كان يؤمن بأن الإسلام نقطة تجمع سياسي ينبغي أن تلتف حولها كل الشعوب الإسلامية للتخلص من الاستعمار الأوروبي. وليس في هذا شيء يعيب جمال الدين أو مريديه) إنني أرفض تهم التكفير وتهم التخوين لكنني لا أستطيع أن أغفل خطر الوقوف المزايد في أقصى اليسار وما قد يجره ذلك الموقف من خطر الاتجاه نحو أقصى اليمين.

تلك هي المقدمة، وذلك هو الدليل الأول عن النتائج الخاطئة لأقصى اليسار، فماذا عن الدليل الثاني وعن موضوع فقه اللغة الجديد كما عبر عنه كتاب الدكتور لويس عوض، وهو كتاب يقدم دراسة علمية تعتمد على المنهج العلمي وما يقتضيه هذا المنهج من أسس وقواعد وأساليب في البحث، وقد ظهر فيه المؤلف واحداً من أهم وأبرع فقهاء اللغات وليس اللغة العربية وحسب، وأسفر عن معرفة عميقة وواسعة بعلم الصوتيات المعروف (بالفونطيقا) وما كشف عنه هذا العلم من قوانين تبادل الشفويات والانفيات في حروف اللغات المختلفة التي يتضح في نهاية الأمر وبعد تطبيق هذه القوانين إنها جميعاً منحدره من لغة واحدة إن لم تكن العربية أو السامية العربية فإنها إحدى اللغات الآرية أو أية لغة أخرى كانت الأسبق في الظهور وكانت لغة أول جماعة بشرية قبل أن تتكاثر وتتوزع في موجات بشرية في

جوانب الأرض المختلفة ومن الملاحظ أن المؤلف لا يميل في افتراضاته التي يعتمد في تكوينها على افتراضات علماء (اللغة الأوروبيين المعاصرين) إلى إثبات أية أسبقية للغة العربية أو السامية التي تفرعت عنها العربية، وهو يرى أن العرب لم يكن لهم على مسرح التاريخ أثر مادي أو لغوي قبل القرن التاسع قبل الميلاد، وهو يقول (ومهما افترضنا للعرب وجوداً في المنطقة قبل ذلك فهو لن يتجاوز بضعة قرون ترجع بهم إلى ١٠٠٠ قبل الميلاد أو ١٢٠٠ ق.م، فلو كان لهم وجود باسمهم المعروف أيام الصراع العظيم بين المصريين والحثيين (١٥٥٥-١٢٧٩ ق.م) أو بين المصريين والميثاني "١٤٥٠-١٢١٥ ق.م في العراق " أو بين المصريين وبني إسرائيل "١٢٢٣-١٢١٥ ق.م" أو.. أو.. لورد ذكرهم في النقوش القديمة في أية من مناطق الشرق القديم).

وعلى هذا فإنه علينا أن نفترض أن وجودهم في شبه الجزيرة لاحق لعام ١٠٠٠ ق.م، أو ما قبل ذلك بقليل. مقدمة في فقه اللغة العربية، ص٢٣

ولويس عوض يبدأ هجومه الذكي المنطلق من أقصى اليسار على اللغة العربية وعلى أقدميتها في الظهور، يبدأه من هنا من التشكيك في أقدمية ظهور العرب بظهور هذه التسمية ولا تربط ظهور البداية المغلوطة التي تربط ظهور العرب بظهور هذه التسمية ولا تربط ظهور المصريون من أواخر الأمم ظهوراً إلى مسرح التاريخ، أقول أنه بالرغم من هذه البداية المغلوطة فإن الذي أوقع الدكتور لويس في الخطأ الفادح هو حرصه الواضح على الانطلاق من أقصى اليسار وهو الأمر الذي وضعه دون أن يشعر في أقصى اليمين سواء في قصية العرب أو العربية وهو موضوع بحثه في كتابه هذا.

إن موقف لويس عوض، من العرب ومن عروبة مصر بخاصة لا يحتاج إلى تعريف، وقد وضعه هذا الموقف منذ فترة طويلة في صف أكثر الجماعات في مصر تعصباً ورجعية، وغريب أمر عالم جليل وباحث موسوعي ينفق السنوات الطوال من عمره في سبيل تحقيق نتائج لا تستفيد منها إلا أقلية إقليمية أو رجعية أو معادية للتطور والتفكير الحر. وقد تساءلت بعد الانتهاء من قراءة كتاب الدكتور لويس عن الهدف الإنساني أو القومي أو الإقليمي الذي توخاه من وراء ذلك الجهد العظيم والبحث الشاق في جذور اللغات المعروفة في العالم، وقد تبادر إلى ذهني في

البداية أن الهدف الأساسي الذي دفعه إلى تأليف الكتاب ومعاناة كل هذا القدر من الصعاب هو محاولة إثبات خطأ القول بالنقاء اللغوي ومن ثم إثبات خطأ القول بالنقاء السلالي فاللغات البشرية مهما اختلفت نابعة من أصل لغوي واحد، والبشر أنفسهم مهما اختلفت ألوانهم وأشكالهم ومناطقهم ينحدرون من أصل واحد، وهي نفس النظرية التي حاولت الأديان إثباتها عن طريق الإقناع الروحي وبعيداً عن الأدلة المادية المتغيرة والمتناقضة.

وفي ظني أن الدكتور عوض لو كان قد هدف إلى شيء من ذلك لكان قد حمى نفسه من الاتهامات الثقيلة، ولما تعرض كتابه لما يتعرض له من حملات التشويه والتحريم، ولو أن الجماعات التي تطلب برأس الكتاب وتسعى إلى وضعه في فقص الاتهام ولو أنها قد قرأت الكتاب، وحاولت أن تتفهم نتائجه من هذا المنظور لما وجهت إلى الكتاب وإلى المؤلف كل هذه السهام، فالمؤلف الجليل رجل مؤمن وباحث لغوي لا يختلف كثيراً عن دعاة التوقيف في اللغة العربية وهم جماعة من العلماء والرواة يرون أن اللغة وحي من عند الله وأنه قد أوحى بها إلى البشر مكتملة المفردات محكمة القواعد، وأنها قد تعرضت للفساد والانحطاط والاختلاف بفساد البشر واختلافهم وانحطاطهم، وهو رأي محافظ يخالف رأي الفريق القائل: بالإصلاح والوضع وبأن اللغة –أية لغة– موضوعة، وهي ما اصطلح عليه البشر في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من كلام، وهذا الفريق الأخير يرى أن المفردات قد كانت في بداية أمرها محاكاة وتقليداً للأصوات المسموعة كدوي الرصاص، وخرير الماء، ونعيق الغراب، وصهيل الخيل، وهو ما يفسر التشابه بين اللغات ومصادر الاشتقاق. انظر شعر العامية في اليمن ص١٩.

وبحث الدكتور لويس بالرغم من مقدمته النظرية التي تعارض التوفيق، وتأخذ بجانب من أقوال فريق الإصلاح والوضع، وتستشهد بعلماء المعتزلة، هذا البحث في نتائجه لا يكاد يختلف عن مواقف فريق التوقيف، ويصلح ليكون دليلاً معاصراً على صحة ما ذهبوا إليه من وجود لغة أم هي أصل اللغات، ولا يهم أن تكون هذه اللغة عربية الأصل أم غير عربية، ولا عبرة بقول من يدعي أن اللغة العربية هي وحدها القديمة قدم الجنة، ولا عبرة كذلك بما قاله ابن فارس من أن لغة توقيف، ولا بما أورده من تفسير ابن عباس للآية القرآنية "وعلم آدم الأسماء" من أن علمه الأسماء

كلها وهي هذه التي يتعارفها الناس من دار وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها..

تلك كانت تقريباً أبعاد وجهة النظر الاختلافية بين فريقي التوقيف والإصطلاح في اللغة العربية وإذا كان الدكتور لويس قد حاول في مقدمته النظرية –كما ألمحت سابقاً– أن يتبنى وجهة نظر الفريق الآخر فريق الإصطلاح فإنه في القسم التطبيقي قد التقى من حيث لا يريد مع الفريق القائل بتوقيف اللغة، وهذا لا ينفي حداثة التناول ولا يقلل من الجهد المبذول بل لا أبالغ إذا ما وصفته بالجهد المنقطع النظير، وبخاصة ما يتعلق منه بالمقارنات ودراسة التحولات الصوتية في صيغ المفردات المتماثلة في معظم اللغات الحية، وفي تقسيم الحروف إلى شفويات وحاقيات وسقف حلقيات، ثم في افتراض الجذور الأصلية، وهو افتراض يصل عنده إلى درجة اليقين شأن التوقيفيين تماماً، وهو أحياناً يقدم لهذا اليقين بإدعاء الحيرة كقوله في الفصل السادس والخاص بتتبع تشابه أسماء الأعداد: "والحق" أن حيرتنا لتزداد حين نتأمل التكوين الأساسي للغة العربية على سبيل المثال، فنجد أن الألفاظ "الهندية الأوروبية" بالأصل أو بالاشتراك قد تجاوزت صلب اللغة في مراحل الحضارة، وامتدت إلى القاموس الأساسي أو الأولى أو البدائي في جذور اللغة ذاتها، نجد أن عدداً عظيماً من الأفعال والأسماء والصفات الملموسة المباشرة التي يتكون منها قاموس الحياة اليومية، أسماء وأفعال وصفات هندية وأوروبية نجد أن أسماء الأعداد في أكثرها أسماء هندية أوروبية، نجد أن أسماء "الأب والأم والأبن والأخ والأخت والأرض والبقرة والثور والجواد والحصان والقافلة" وفئات من أسماء الحيوانات والطيور والنباتات الأساسية هندية أوروبية. نجد أن أسماء الألوان أكثرها هندية أوروبية. حتى "الحياة والموت والمرض" والعلة والشيخوخة. ألخ... أسماؤها هندية أوروبية عندئذٍ لا يسعنا إلا أن نسأل هذا السؤال: هل كان الآشوري أو البابلي أو العبراني بحاجة إلى غزو؟

الأسكندر ليتعلم أن أباه هو أبوه، وأن أمه هي أمه، ولكي يعد على أصابع اليدين "أثنين– ثلاثة– خمسة – ستة– سبعة... ألخ".

والعكس صحيح، فلا نحسب أن اليوناني بحاجة إلى الفينيقي ليأخذ عنه هذه الأشياء الأساسية المتصلة بمعاشة وحياته اليومية. ثم تزداد الصورة تعقيداً حين

نتوغل في البحث فتكشف أن عدداً عظيماً من هذه الأسماء والأفعال والصفات الأساسية جذور مصرية قديمة ترجع على الأقل إلى عصر تدوين المعروف منذ ٣٠٠٠ ق.م فهل نفسر هذا التواتر بأن المصريين الحاميين نشروا لغتهم في المنطقة السامية من الشام إلى اليمن، وفي المنطقة الأرية حيث أقام اليونان والرومان، أم يفترض أن الساميين هو الذين فعلوا ذلك بالحاميين والأريين، أم يفترض أن الاريين فعلوا ذلك بالحاميين والساميين، أم ترانا نفسر هذا التواتر بقولنا أن نظرية الموجات وحدها غير كافية لتفسير هذا التواتر في القاموس الأساسي للمجموعات الثلاث وإنما يجب أن نفترض أن كل هذه التقسيمات السامية والحامية والارية تقسيمات حديثة تصف حالة اللغات المعروفة المدونة منذ خمسة آلاف سنة لا أكثر (أي منذ ٢٠٠٠ ق.م) وإنما الحقيقة أنها مجرد أنهار ثلاثة خرجت من منبع واحد أو فروع ثلاثة خرجت من شجرة واحدة قديمة يقاس عمرها بعشرات الآلاف من الأعوام حين كانت البشرية لا تزال تعيش في مهد واحد قديم قدم العصور الانثربولوجية إن لم يكن العصور الجيولوجية ثم تفرقت جماعات وقطعانا على سطح البسيطة دهراً بعد دهر...

نفس المصدر ص٢٩٩

وبعد كل هذه الافتراضات التي تجمع بين صور اليقين وظلال الحيرة، يقترب الدكتور لويس من نقطة الابتداء، ابتداء تكوين اللغة الأولى، اللغة الأصل، وقد رأى أن ذلك يعود إلى عصر قريب من العصر الجليدي "٥٠٠.٠٠٠" سنة، عصر ظهور الإنسان الناطق "ولنقل أن نهاية العصر الجليدي كانت أيضاً بداية حضارة الإنسان في أكثر من مكان على سطح الأرض، الإنسان الذي نقش نقوش كرومانيون وجربمالدي كان صاحب ديانة وعبادة وكان صاحب قدرة على التشكيل الفني وكان على علم بالزراعة وبعض الصناعات الريفية كتربية النحل، وبالتالي فلابد أن نفترض أنه كان أيضاً مسلحاً باللغة". نفسة ص٣٠١

وحين ترجع إلى النص السابق سوف نلاحظ أن الدكتور عوض قد جعل الأسماء والأفعال والصفات الأساسية ذات الجذور المصرية أقدم من غيرها فهي ترجع على الأقل إلى عصر التدوين المعروف. وإذا كان الباحث الجليل قد أطمأن إلى ذلك التفسير مضافاً إليه الافتراض الأخير عن إنسان نهاية العصر الجليدي وهو

إنسان بداية الحضارة وصاحب ديانة وعبادة وقدرة على التشكيل الفني ألخ..فما الفارق بين هذا الباحث الذي انطلق من أقصى اليسار وبين ذاك الذي أرهقته الحيرة في تفسير نشأة اللغة فأراد أن يحمي نفسه وتفكيره من مخاطر تلك الحيرة ورأى أن اللغة الهام وتوقيف من الله لآدم ومنه إلى سائر أبنائه الذين تكاثروا وتفرقوا قطعاناً على سطح البسيطة دهراً بعد دهر، وهكذا جمع الله الشتيتين أقصى اليسار وأقصى اليمين بعد عمر طويل، وبعد سنوات من البحث والجهد من قبل الدكتور قاداه إلى هذه النتيجة التي لا تكاد تختلف كثيراً عن النتيجة التي توصل إليها بشأن جمال الدين الأفغاني، فقد أعطى اليمين الدليل الذي كان يبحث عنه أو يتشكك في وجوده لا حبا في الوصول إلى الحقيقة المجردة والإيمان بنزاهة البحث، وإنما لأن الدكتور على ما أسلفنا، يقع تحت سيطرة عقدة الخوف من العرب ومن كل ما هو عربي، وهذه العقدة تجعله يهدر طاقته الفكرية العظيمة في خدمة الأفكار المختلفة والمتراجعة، ومن يريد أن يقف في وجه النقاء السلالي وفي وجه النقاء اللغوي لا يمكن أن يتعصب للهجة من اللهجات أو للغة من اللغات حتى لا يقع فيما ينكره أو يحذر منه، ووقع الدكتور فيما أنكره في أكثر من مكان من كتابه، وتحولت دراسته التحليلية العميقة من دراسة للتشابه العام بين اللغات إلى محاولة هجوم مباشر أو غير مباشر على اللغة العربية وإبراز اللغة المصرية القديمة، وهو ما أساء إلى كتابه الجديد المهم وغير المسبوق والذي تجددت أهميته وجدته في الفقرات الأخيرة من الفصل الرابع وعلى النحو الذي يرتئيه هو حين يقول: ولقد كان من أهم القوانين الفونطيقية التي تم اكتشافها أن "الها" و"الحا" و "السين" و "الشين" كلها بدائل فونطيقية داخل المجموعة الهندأوربية. ومن هذا أستخلص بعض العلماء من أمثال جراي وهرنزفلد أن ما يسمى بالساميين والهاميين والحاميين أو الشاميين ليس تقسيماً سلالياً وإنما هو مجرد تقسيم لغوي معناه في إيجاز الناطقون بلسان والناطقون بالحاء والناطقون بالشين، كذلك انضح من هذه الأبحاث أن هذه ليست ظاهرة قاصرة على أو مميزة لمجموعات اللغات الكبرى، كالمجموعة السامية أو المجموعة الحامية، أو المجموعة الهندية الأوروبية لأن قوانينها الفونطيقية والمورفولوجية ذات فاعلية داخل كل مجموعة من هذه اللغات، غالباً بسبب تراكم الحضارات في كل منها. وهذا هو الافتراض الذي أسست عليه كتابي هذا، ألا وهو أن المجموعة

السامية ونموذجها اللغة العربية والمجموعة الحامية ونموذجها اللغة المصرية القديمة ليستا مجموعتين مستقلتين بذاتهما وإنما هو فرعان أساسان في تلك الشجرة السامقة التي خرجت منها المجموعة الهندية الأوروبية.

وقد وصلت إلى هذه النتيجة من طريق موازٍ للطريق الذي سار فيه هرمان مولر. وبيدرسون ومبية وكوني، ثم وجدت نفسي مع التوسع الشديد في الاستقراء قبل الاستنتاج، في النهاية أتمم عمل هؤلاء العلماء الذين أرهصوا من قبل بهذا الكشف الخطير ووجدتني أجمع أدلة التوثيق وقرائنه لإثبات ما كان من قبل مجرد احتمال، كما في العلامة مبيه، أو ترجيح كما في العلامة كوني.

وأرجو أن أكون قد انتقلت بهذا الافتراض الخطير من مرحلة (الاحتمال) إلى مرحلة (النظرية) ذات القوانين. وأخيراً فإن استخلاص المبادئ العامة والقوانين العامة التي يمكن بها تفسير هذه القرابات وهذه التحولات الفونطيقية والمورفولوجية، من خلال التحليل الفيلولوجي المقارن، يمكن أن يعنيا على:

١. دراسة مكونات اللغة العربية ولهجاتها ومكونات القبائل العربية حتى صدر الإسلام لغات وأجناساً.
٢. دراسة القوانين والقواعد التي حكمت خروج اللغة العامية المصرية وغيرها من اللهجات العربية الحديثة من اللغة الفصحى.
٣. دراسة علاقة الساميات والحاميات عامة لغات وأجناساً.

وما فعلت في هذا الكتاب إلا أن فتحت باب الاجتهاد الفيلولوجي، ولذا سميت كتابي "مقدمة" في فقه اللغة العربية، عسى أن يأتي بعدي من يقيم "أركان هذا العلم الخطير". نفس المصدر ص١٤

لقد حددت هذه الفقرات مهمة الكتاب، وهي مهمة جليلة حقاً، وقد تحقق الكثير منها في الكتاب لكن المؤلف وهو يضع عند أحد مداخل كتابه هذا الشرط "أن لا ندخل في هذا البحث ونحن نحمل معتقدات جاهزة قد تكون عقبة في طريقنا إلى بلوغ الحقيقة أو بعضها" المؤلف الذي يضع هذا الشرط يبدو أنه قد نسبه أو تجاهله ودخل إلى بعض فصول بحثه وهو يحمل أكثر من معتقد جاهز، من هذه المعتقدات كراهيته يغر المبررة للعرب واللغة العربية واعتقاده أن اللغة المصرية القديمة التي

اندثرت ولم يبق منها –إن كان قد بقي شيء حقاً سوى مفردات معدودة– اعتقاده أنها اللغة الأصل، وظهر الكتاب وكأنه بسبب وبدون سبب يحاول تجريد اللغة العربية من كل مميزاتها التاريخية والمعاصرة، وبدت في معظم الفصول وكأنها عالة على المصرية القديمة، وإذا كان ذلك صحيحاً وهو جزء مما يعتقده الدكتور لويس فإن ذلك ادعى إلى احترام اللغة العربية من جانبه، وإلى تقدير العلاقة الحميمة بين اللغتين المصرية والعربية، وتقدير الوشائج القوية بين العرب القدماء والمصريين القدماء، وهي وشائج ابتدأت قبل الإسلام بقرون ثم تعمقت وتضاعفت بعد ظهور الإسلام، وصارت مصر الإسلامية بعد قرن أكثر عربية من جزيرة العرب نفسها وأصبحت اللغة العربية لغة الكنيسة والمسجد ولغة الريف والمدينة في كل مصر، ولم يحدث هذا بسبب إحساس المصريين بأن العربية هي اللغة المناسبة –كما يقول رجاء النقاش في كتابه الانعزاليون في مصر– وإنما حدث ذلك لأن المصريين عرب، وتربطهم بإخوانهم في الجزيرة العربية والشام من أواصر القربى والمصالح من روابط الجوار ومن العلاقات التاريخية المشتركة ما يجعل كل محاولة للتشكيك إفساداً للحقيقة في حد ذاتها قبل أن يكون إساءة إلى البحث العلمي والعلماء.

في الجزء الأول من هذه القراءة لكتاب الدكتور لويس عوض "مقدمة في فقه اللغة العربية" أدركت منذ الفصل الأول –وربما يكون ذلك خطأ مني– أنني وصلت إلى حد فهم هدف الدكتور من وراء تأليفه لهذا الكتاب، ولا ريب أن فهم هدف الكاتب وغرضه من التأليف يساعد قارئه على فهم كتاباته ويجعل الحوار بينهما – أي بين الكاتب والقارئ– سهلاً وأحياناً ممتعاً. وأعترف أن الفصل الأول من الكتاب لم يكن كافياً ليجعلني أعثر على الفهم التام لهدف الدكتور لويس لو لم أكن قد قرأت بعض نماذج مشابهة من كتاباته السابقة التي تعتبر بمثابة التمهيد للكتاب، والتي تبدو فصول الكتاب أحياناً وكأنها النظرية الشمولية والخلاصة العلمية الدقيقة لتلك الكتابات سواء ما كان يتعلق منها بالعامية المصرية أو بالقضايا الأدبية والفكرية المرتبطة بعلاقة مصر بالأدب العربي والتاريخ العربي.

إن هذا الكتاب إذاً لم يظهر فجأة، ولم يأتي تعبيراً عن رغبة عابرة في بحث جانب من أوضاع اللغة العربية، ولم يصدر عن طموح معين إلى إعادة النظر في فقه هذه اللغة أو إلى محاولة تأسيس فقه لغة معاصر يحاول أن يجنب اللغة العربية

من العيوب التي كشف عنها عصر الطباعة والنشر، وهي عيوب معترف بها وقائمة في نظام الكتابة، وفي قواعد النحو والصرف، لكن الكتاب صدر عن جهد استغرق سنوات طويلة من حياة المؤلف وجاء منسقاً مع أفكاره التي ظهرت في أواخر ثلاثينات هذا القرن وفي أوائل أربعيناته وهي أفكار تناصب اللغة العربية العداء، وقد ظهرت بوادر هذه الأفكار كنظرية وتطبيق على مستوى ضيق الحدود في ديوانه الشعري اليتيم "بلوتولاند" وفي كتابه "مذكرات طالب بعثة" وهو خليط من الرواية والسيرة الذاتية، وأدب الرحلات، وهذا الكتاب مع الديوان هما كل ما كتب لويس عوض بالعامية المصرية التي نادى بها لغة رسمية وشعبية للمصريين، وظنها اللغة القادرة على إنجاب العمالقة بعد أن عجزت مصر باللغة العربية الفصحى أن تنجب شاعراً واحداً له خطره وقيمته التاريخية. وذلك لأن المصريين – على حد تعبيره– لم يتمثلوا اللغة العربية القرشية كما يتمثل الكائن العضوي غذاءه.

ومن بين الآراء التي أوردها في مقدمة ديوانه قوله: (ما من بلد حي إلا وشبت فيه ثورة أدبية هدفها تحطيم لغة السادة المقدسة وإقرار لغة الشعب العامية أو الدارجة أو المنحطة، فأصحاب "الكوميديا الألهية" و"أغنية رولان" و"القصة الوردة" و "دون كيشوت" و "حكايات كانتربري" في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا وانكلترا أبطال شعبيون قبل أن يكونوا أدباء، وزعماء استقلال قبل أن يكونوا أصحاب فن عظيم، لأنهم كفروا باللغة (المقدسة اللاتينية) وآمنوا بلهجتها المنحطة، والكنيسة التي تخف دائماً إلى حماية السادة من العبيد قامت يومئذ بدورها التاريخي فحاولت إخماد ثورة العبيد، وأهدرت دم الثائرين، أما في مصر فقد ثار كثيرون على اللغة المقدسة، بعضهم داخل النطاق النظري كـــ "لطفي السيد"، وبعضهم بصورة عملية كـــ "بيرم التونسي" شاعر مصر الأول ولكن ثورتهم لم تكن بالثورة الفعالة، لأن العبيد لم ينضجوا بعد تحطيم أغلالهم، ورغم ذلك فنحن نحني رؤوسنا أمامهم، ولسوف ينجبون العمالقة في مستقبل الأيام).

وحين نقرأ هذا الكلام الذي كتبه ربما في أواخر الثلاثينيات أو في أوائل الأربعينيات ندرك عمق الجفوة بينه وبين اللغة العربية الفصحى وبينه وبين العرب الذين يسميهم هنا بالسادة أصحاب اللغة "المقدسة" وندرك أيضاً محاولته المبكرة إلى التفريق بين اللغة الفصحى من جهة وبين مستواها العلمي "اللهجة" واعتباره

المستوى الفصيح من اللغة العربية لغة السادة ولغة عربية مستوردة بينما المستوى العامي لغة مصرية أو لهجة مصرية وثيقة الصلة باللغة المصرية القديمة، وهذا الوهم لم يلبث أن نما وتشعب وصار "مقدمة في فقه اللغة العربية".

لقد وقع الدكتور لويس في كتاباته السابقة في خطأ تاريخي، وهو خطأ لا يقف عند حدود اللغة ذاتها بل يتعداها إلى المجال القومي والوطني، بدلاً من أن يعترف بالخطأ ويتنبه للمخاطر التي لابد أن تقود إليها آراؤه اللغوية، إذا به يعكف على تبرير ما كان قد ذهب إليه مستخدماً كل ما حذقه من مهارة في البحث العلمي، وقد حاول حقاً أن يتجنب الملاحظات اللفظية العاجزة والقائمة على القدح والتجريح في جدوى اللغة العربية، وأن يستعيض عن ذلك بالمنهجية والتحليل لكن ذلك الهدف المسبق والمبيت القائم على الخطأ بقي واضحاً ولم تستطع المنهجة ولا الجهد الخارق أن تخرج به عن دائرة التبرير للحالة السلبية التي تمثلت في تلك البدايات المزاجية المنطلقة من كراهية لا مبرر لها ومن مزاعم لا سند لها.

والغريب في الأمر أن عدداً غير قليل من الذين اشتهروا بعدائهم للغة العربية، قد توقفوا عند مرحلة معينة من العداء أو تراجعوا عن عدائهم نهائياً ما عدا الدكتور لويس الذي استمر عداؤه للغة العربية كل هذا الزمن الطويل، وكأنه في كتابه الأخير عن فقه اللغة يحاول تجسيد هذا العداء وتبريره علمياً بعد أن فشل غيره في تجسيده وتبريره عاطفياً وإقليمياً. وفي فصل بعنوان "ماتت اللغة العربية، عاشت اللغة المصرية" يقول الكاتب المعروف رجاء النقاش في كتابه "الانعزاليون في مصر": منذ أواخر القرن الماضي والمحاولات لا تتوقف عن تحويل اللهجات العامية إلى لغات مستقلة قائمة بذاتها، منفصلة تمام الانفصال عن اللغة العربية، والحجج التي كان يرددها أصحاب هذه الدعوات، هي نفسها التي يرددها أو يردد بعضها الدكتور لويس عوض الآن، ومصدر هذه الدعوات جميعاً واحد وهو عدم الإيمان بوجود أي رابط بين الشعوب التي تسكن المنطقة العربية والإيمان –على العكس– بضرورة تحرير كل شعب من هذه الشعوب –عن طريق ثورة أدبية شعبية– من اللغة العربية، بحيث يكون هناك لغة مصرية يعبر بها شعب مصر عن شخصيته المصرية الخاصة، وهذه اللغة هي اللغة المصرية المعتمدة على العامية والتي يجب أن تصبح لغة الكتابة وليست لغة الحديث فقط، وعلى اللغة العربية أن

تفسح لها الطريق، وأن تتخلى عن مكانتها كما تخلت الاتينية عن مكانتها في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وحلت محلها اللغات الأوروبية الحديثة، وهي لهجات تعتمد أساساً على اللهجات المشتقة كما ذكرنا في الفصل السابق. وما ينبغي أن يحدث في مصر من قيام لغة مصرية خاصة معتمدة على العامية هو نفسه ما يجب أن يحدث في العراق، فتقوم لغة عراقية، وفي الشام، فتقوم لغة شامية، وفي المغرب، فتقوم لغة مغربية وهكذا.. وقد مضت الآن على بدء هذه المحاولات ما يقرب من مائة سنة والنتيجة هي فشل هذه المحاولات جميعاً فشلاً كاملاً، فقد بقيت اللغة العربية في مصر وازدادت قوة وبقيت اللغة العربية في لبنان، وإن كانت الحرب هناك على اللغة العربية شديدة العنف والضراوة، ومع ذلك فإن تلك الدعوات لم تنجح ولم تنتصر، ومعنى هذا كله لمن يريد أن يقرأ التاريخ قراءة صحيحة أن اللغة العربية متمكنة من قلب هذه المنطقة، فالمنطقة متمسكة بهذه اللغة حريصة عليها، وفي نفس الوقت، فإن هذه اللغة تمثل رابطاً حضارياً قوياً بين أبناء المنطقة العربية، وهذا الرابط هو ما نسميه باسم القومية العربية، وهو ما يرفض الدكتور لويس عوض الاعتراف به رغم وفرة الأدلة الحضارية والتاريخية التي تثبته وتؤكده".

الانعزاليون في مصر، ص٧٧

هل يستحق هدف الانعزاليين ودعاة التخلص من اللغة العربية، هل يستحق ذلك الهدف منهم هذا الجهد ومثل ذلك العناء؟ ولماذا يسعون جادين على اختلاق أسباب لا أساس لها للتمزق والشتات ولماذا لا تنتشر هذه الدعوات الغربية والسلبية إلا في ظروف تكون فيها الأمة العربية غاية في التمزق والاختلاف؟ وكيف يرضى الباحث عن نفسه ويرضى عنه ضميره وهو عاكف ينبش في ركام التاريخ ليبحث وينقب عن عوامل التمزق والفرقة، ألا تكفي الخلافات الحديثة وما تصنعه القوى المعادية والطامعة من حواجز وحدود، وما تبذره من شكوك ومخاوف بين أبناء القطر الواحد والإقليم الواحد بل بين أبناء العشيرة الواحدة إلا تكفي كل هذه العوامل مجتمعة حتى ينتدب بعض المفكرين العرب أنفسهم لمساعدتها والتمكين لها من

خلال قراءة تاريخ المنطقة حيناً أو قراءة تاريخ لغتها حيناً آخر قراءة خاطئة وبعيدة عن الإنصاف.

تلك هي براهين ما زعمته في بداية هذه القراءة عن فهم أهداف الدكتور لويس عوض، وعن القصد الذي توخاه من وراء تأليف كتابه موضوع الحديث، وهو كتاب كان يمكن لو لم تنحرف به تلك المقاصد أن يكون من أهم الدراسات الأكاديمية المعاصرة في فقه اللغة العربية سواء بما بذل فيه مؤلفه من جهد خارق أو بما كشف به من حقائق عن التشابك اللغوي وعن الوشائج الواضحة بين المجموعات اللغوية الكبرى. لكنه أضاع تلك الأهمية برواسب التعصب الإقليمي وبرواسب العداء غير المبرر للعرب والعربية، ولا أدري هل يعلم الدكتور لويس عوض – وهو سيد العارفين– أنه بكل مواقفه المعادية للعربية والعرب لا يستطيع أن يقنع كاتباً أوربياً واحداً بأنه غير عربي، وبأنه لا يمت بثقافته إلى هذه المنطقة العربية بكل ما فيها من خير وشر ومن تطور وانحطاط.

وفي ضوء هذا الفهم لهدف الدكتور لويس من وراء تأليفه لكتابه هذا تعالوا نقلب بعض الصفحات، ونحاول متابعة الكاتب الفقيه وهو يجعل مما يسميه "باللغة المصرية القديمة" أصلاً وجذراً تاريخياً لكل اللغات، وكأنه بمحاولته هذه للتضخيم من الدور التاريخي لما يسمى بالمصرية القديمة قادر على بعثها وإحيائها وإقناع الناس في مصر بأن يعودوا إليها لتكون لساناً لهم بعد ألف سنة على الأقل من اتخاذ اللغة العربية لغة وجدان، ولغة حياة، ولغة فنون وآداب. وقد أشرت في القسم الأول من هذه الدراسة إلى التشابه القائم بين الدكتور لويس وبين بعض فقهاء اللغة العربية الأوائل ممن عرفوا بالتوقيفيين والذين وصفهم الدكتور نفسه بأنهم حاولوا إثبات أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها، وأنها قديمة غير مخلوقة، وأنها لغة آدم ولغة أهل الجنة، ولم ينتبه الدكتور الفقيه إلى أن موقفه مع اللغة المصرية القديمة لم يختلف كثيراً عن موقف أولئك الفقهاء القدماء. فهي اللغة الأم، واللغة الأصل وهي كما سبق أن قال اللغة القادرة على التعبير عن شعب مصر وعن شخصيته المصرية الخاصة والتي يجب أن تصبح لغة الكتابة وليس لغة الحديث فقط، وليس بعيداً بعد ذلك أن تكون هذه اللغة المصرية المزعومة هي لغة أهل الجنة وأهل النار معاً!..

في الفصل الثامن من كتاب"مقدمة في فقه اللغة العربية" وهو الفصل الخاص بأسماء أعضاء الجسم، يتحدث المؤلف عن التشابه في جذور الألفاظ المعبرة عن هذه الأعضاء ولنبدأ من العين حيث يقول: "عين عربية نظر، عمى، أعمى. أكمه. أعشى. اعور. أحول. كفيف. ضرير. عسى. عسعس- جاسوس (تجسس) أعمش "مصرية". عاجز"مصرية عدو للشمس"مصرية" نضر"مصرية"ناطور"عربية ومصرية".. وهي تساوي أي (Eya) انجليزية يساوي أيج (Elze & Elghe) واي (Eey) وجمعها أيجين (Eyen & eighen) أنجليزية وسيطة يساوي أياجي وجمعها أياجان (eagan) انجلوسكسونية يساوي أوجي (Auge) ألمانية يساوي أوجوية (augo) قوطية يساوي أوجا (ouga) جرمانية عالية قديمة أوجا سويدية دنماركية تساوي أوي هولندية أوجا إيلاندية أو أوي دنماركية أوي فرنسية يساوي أكيس (oculus-(Akis لاتينية وهي التصغير من لاتينية أقدم- هي أكوس (OCUS) يساوي... ألخ.

فجذر كلمة عين إذن –والحديث ما يزال للدكتور لويس- هو هي والنون مضافة، وهي من آثار مثنى أو جمع قديم باد قارن المجموعة التيوتونية وجمعها الأصلي بالنون n قبل ظهور الجمع بالسين s والكلمات التالية في اللغة العربية تنتمي إلى جذور (oss-ouk-och-op-ot-auy-aug-ouk-oss) ومشتقاته: (١) عين ب-أعشىجــ- أكمه د- أعمى هــ- أعمش و- أهور ز- أحول ح- كفيف ط- عيس (عسس)ي- عسس ك- مصرية ل- عاجز مصرية.

ويلاحظ أن الصفات العربية التي على وزن أفعل لا علاقة لها بصفة أفعل التفضيل، إنما هي صفات تشترك جميعاً في أن صدرها يبدأ بالهمزة وهذا القالب مألوف في تكوين الصفة العربية، ولكن هذه الألفاظ المتصلة في معانيها تشترك جميعاً في ظاهرة واحدة وهي الدلالة على سلب البصر أو فقدانه بطريقة أو بأخرى، مثلاً الأكمه في لسان العرب فاقد البصر منذ ولادته. والأعشى العاجز عن الإبصار في مواجهة الشمس أو أي ضوء شديد، والأعمش في مصر ضعيف البصر جداً وربما مركبة من أعمى وأعشى فخرجت أعمش. والأعور فاقد إحدى العينين، والأحول طائش إحدى العينين. واجتماع هذه المفردات البصرية على معنى سلب البصر بطريقة أو بأخرى يدل على أن النحو العربي عرف ما عرفته اللغات الهندية

الأوروبية على الأقل منذ اليونانية واللاتينية من النفي بالأدة (أ) أو (أب) ab أو (أن) an تدخل على أول الكلمة فتنفيها أو تسلب معناها أو تدل على الانحراف عن مفهومها: كما في قلوهم مورال Moral أخلاقي وأمور الـــ Amoral لا أخلاقي، ايسنيزيا Aesthesle شعور، وانيشيريا Anaesthesia بمعنى تخدير أو حرفياً فقدان الشعور... ألخ.

وهكذا يكون المعنى الحرفي لكلمة أعمى وأكمه "١+ عمى و١+ كمه" من لا عينين له من إدخال أداة النفي على ok, og-oy بمعنى عين وم أعمى، وأكمه تظهر في بعض صور الكلمة اليونانية مثل أوما عين من أوتما وأوكوما كما تظهر في السنسكريتية. وكذلك أعشى من صيغة ossa في لغة الشعر والملاحم اليونانية ومعناها الحرفي من لا عين أو الإبصار له أمام الشمس فهي أما "عمي" مع تحديد نوع معين منه وأما أن الكلمة مكونة من "النافية" + عو (عين) + جذر مجهول المعنى تحمل فكرة الشمس أو الضوء هو (ش) وغالباً فيه أثر من كلمة شمس وبالمثل أعور مركب من النافية +عو. عين. + بقية جذر يحدد أن سلب الأبصار قاصرة على عين واحدة ومثلها أحول، وأعور وأحول يمكن فونطيقياً أن تكونا صفتين من كلمة واحدة وفعل عس وعسس من عي في صيغة أوتش كما في السلافية والسنسكريتية وأوس في اليونانية الهومرية في الشعر والملاحم وأس في الأرمكية والمعنى الحرفي لعس – عسس العين أو العيون في الليل وهم الشرطة والعيون والجواسيس أصلاً بمعنى العيون وجذر جسس في جاسوس وتجسس من نفس المجموعة الدالة على العين (جسس) يساوي عسس فونطيقياً وسمانتيقياً.

ووجود مفردات في العربية متصلة بالعين ببعضها من صيغة Ay مثل عين وبعضها من صيغة (أوك) مثل أكمه وبعضها من صيغة (أوش) (عشش– جاشوش) وبعضها من صيغة أوش أعش يدل على تعدد مصادر هذه المفردات من مجموعات لغوية متعددة وفي عصور متعددة... أما ضرير فهي من جذر (أوت) OT ومثلها (نظر) العربية أو (نظر) المصرية. وفي مصر يستخدمون كلمة عاجز بمعنى أعمى وليس بالمعنى الشامل وهو الناقص في القدرة وحين يسمون السيدة زينب أم العواجز يقصدون أم العميان أي وليتهم ملاذهم. عاجز صيغة من أوج أو (aug) أو (og)+ أز (ez) وهو مقطع غير واضح المعنى وربما كان صيغة من أركما في

(عور) القانون الفونطيقي (بدلاً من ز) ويبدو أن المعنى الأصلي لكلمة عجوز هو "كليل أو عديم البصر" بسبب الشيخوخة، وليس مجرد: من أدركته الشيخوخة، قارن (Los,Less) في نهاية الكلمات الهندية الأوروبية بمعنى (عديم)، وهذا يجعل أصل "أعور" عوز قياساً على Los وهو يفسر كلمة عجوز بأنها مركبة من (أوج) aug "عج"+ Los لوز وز ومن (عجلوز) خرجت "عجوز"، وعاجز، ومع ذلك فهناك احتمال أن يكون جذر، عجوز وز ومن عجلوز خرجت (عجوز)، وعاجز، (عمر) وهو أرجح.

مقدمة في فقه اللغة ص٣٣٤ وما بعدها.

ولابد بعد اقتباس هذا الجزء بطوله وعلى علاته من كتاب الدكتور لويس، أقول لابد من التوقف هنا بغرض الاعتذار للقارئ والقارئ غير المتخصص وغير المتابع لموضوع اللغويات على وجه الخصوص، فقد حاولت بما اقتبسته وبما سوف اقتبسه فيما بعد أن أطرح بين يدي القارئ نماذج ليتبين من خلالها أولاً مدى الجهد الذي بذله الكاتب، والاعتراف بذلك فضيلة يقتضيها البحث المخلص ثم لكي يتبين القارئ –ثانياً– أساليب الكاتب في التعرف على وحدة الجذر اللغوي للفظ الواحد وكيفية تقليب أوجه الاحتمالات للوصول إلى أقرب احتمال تطمئن إليه نفسه.

ومن الواضح أن تشابها كبيراً وممكناً يتضح –بعد هذا الجهد– بين العربية وبين أصول اللغات الأخرى مما يؤكد الاحتمال الذي ذهب إليه باحثون آخرون من أن العربية هي الأصل السامي للغات المتفرعة عنها، وربما كانت الأصل الأول والأم للغات الأخرى غير السامية كالهند أوروبية التي يتحدث عنها الكاتب كثيراً... وحين نعيد النظر فيما اقتبسناه من صفحات الكتاب فلابد أن ندرك صحة ما ذهب إليه من وجود علاقة بين (عين) العربية وأي Eye بمختلف صيغها الأجنبية الأخرى، وأن اشتراكا قائماً في جذور بعض الكلمات الواردة في النص قد لا يكون مجرد احتمال وفي الوقت ذاته قد لا يكون موضع اختلاف لكن ما يثير الاستغراب بل ويثير الغيظ أحياناً هو هذا الاقحام لما يسميه باللغة المصرية كما في (أعمش) و "عاجز"، و"عدو الشمس" و (نضر) و "ناطور" مع العلم أنها عربية حتى وإن حدث تغيير ما في تركيب بعض أحرفها أو في الاستخدام كما في عاجز وعدو الشمس، ومثل هذا التغيير أو التبديل لا يخرج المفردات عن أصولها العربية ولا يجعلها مصرية أو

سورية أو مغربية أو عراقية وعلماء اللغة المحدثون يسمونها العامية العربية أو المستوى الشعبي من اللغة الفصحى ويمكن الاستعانة بهذا المستوى للتعرف على أبعاد التطور اللغوي على أن يتم ذلك في نطاق اللغة العربية لا في نطاق لغة أخرى تسمى المصرية أو المصرية القديمة أو ما شابه ذلك من تسميات.

ولعل هذه المحاولة الطائشة أو بالأصح هذا التعصب المقيت هو بعض ما ينقص من قيمه هذه الدراسة العلمية الدقيقة، وبعض ما ينتقص أن الجهد الخارق الذي بذله مؤلفها في مجال المقارنة، وفي مجال التتبع التاريخي. ولو أن الدراسة قد سلمت هذه العيوب وعيب التعصب بخاصة لكان لها كما أسلفت القول مكان مرموق في جامعتنا ولكانت في مقدمة الدراسات اللغوية التي تجود بها حياتنا العلمية والثقافية الحافلة بين عقد من الزمن وآخر ولا أدري كيف جاز لعالم جليل يمتلك كل هذا القدر من المعرفة أن يجعل المقارنة بين (فم) عربية و (تم) و "بق" مصرية، و (ماوث) أوروبية، وبين لسان، "ولغة ولهجة عربية وتتج أوروبية ولغوة" مصرية بين سن عربية وتوث وتاند وتزان أوروبية و(سنه) مصرية أنه أقحام للفرع مع الأصل وإطالة في المقارنات لا معنى لها سوى إثبات أن العامية العربية المصرية هي الأصل وأن اللغة العربية وبقية اللغات في العام –كما سبقت الإشارة إلى ذلك– هي فروع لهذا الجذر المصري الضارب في أعماق التاريخ المعلوم والمدون ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد. كما يقول الكاتب نفسه وكما يحاول أن يقع بذلك القارئ.

ولنحاول مرة أخرى اقتباس نموذج آخر لنفس السبب وليكن من نفس الفصل الثامن والنموذج يرتبط بالأذن وما يعتريها وتكاد المقارنة تتحول كما سنلاحظ إلى مقارنة بين العربية الفصحى والعربية العامية (وش) (مصرية) وشوش عربية. وسوس عربية مصرية "عربية" بمعنى "ثقل السمع". اسر. دندن (أسمع الأذن كثيراً) طن.طنو... زن (مصرية) وزن "الشعر أو الكلام بمعنى جعله منسجماً مع الأذن لا معنى ضبطه بالميزان دوشه" مصرية هوشة "مصرية– لا بمعنى (الهوس أو الجنون العربية ومصدرها "هلوسة" ولكن بمعنى الضجيج في الأذن.

حس (مصرية بمعنى صوت لا بمعنى إحساس) من ح+ أوس، هس – أش بمعنى اسكت (hush) في الإنجليزية وربما كانت أوتوماتو من الأسماء الأصوات ولكن يبدو أن لها صلة بكلمة أو – أذن، (همس) (هم+س) سوريس (مصرية)

بمعنى ملأ الأذن ضجيجاً حتى أطاش العين أصم "عربية" و "أطرم" مصرية (أطرش) من الهمزة النافية + أوت (ot) بمعنى من لا أذن أو سمع له "قأرن أعمى". وهذا يدل على أن العربية أو لهجاتها عرفت صيغة بمعنى آخر. كما في مرض الأذن وأمثالها في اللغة الأوروبية لما عرفت صيغة بالدال (d) كما في "ودن" المصرية بمعنى أن نقارن "ودن" المصرية كل هذه مفردات متصلة بالأذن وما يلقي فيها من كلام. أما المفردات المصرية فتحتاج المزيد من البحث عما إذا كان بعضها مشتقاً من العربية مباشرة أو منحدرة من أصول أخرى وظاهر الحال يوحي بتعدد المصادر. (نفس المصدر: ص٣٥٣)

وتكشف هذه الفقرة المقتبسة وسابقاتها عن انقطاع الصلة بين الدكتور لويس والعاميات العربية الأخرى، فالتجاوزات التي حدثت في العامية المصرية لا تكاد تختلف عنها في بقية الأقطار العربية مع اختلافات طفيفة. ويبقى بعد هذه الإشارة العابرة التأكيد على بعض القضايا الأساسية في الموضوع ومنها أن كتابة نظرية أو مقدمة لنظرية في اللغة العربية تتطلب إلى جانب وهي القديم والجديد واستيعابهما، الابتعاد عن الإنزلاق وراء الأحكام المسبقة والمقررة سلفاً أن تكون هذه المقدمة أو تلك النظرية مبرأة من الحماسة التقليدية أو الإثارة المعاصرة، وأن يتم إقامتها بعيداً عن التعصب للغة العربية أو التعصب ضدها، كما أن التنظير ليس ما ينقص اللغة العربية وإنما تنقصها أشياء أخرى أبسطها اكتشاف وسائل حديثة تمكنها من استيعاب معارف العصر ومن محاولة تجاوز النقص في التعبير والإيصال.